قِصَّةٌ قَصِيرَةٌ بِعُنْوانِ (خُطُواتُ عاشِقٍ)

فِي كُلِّ عامٍ، ومعَ اقترابِ مَوعِدِ الزيارةِ الأربعينيةِ، تَتَدَفَّقُ جُموعُ الزُّوّارِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ قاطِعةً المسافاتِ الطويلةَ بِخُطًى ثابِتَةٍ ونابضةٍ بالعِشْقِ، هؤلاءِ الزُّوّارُ رَغْمَ تَنَوُّعِ جِنسِيّاتِهِمْ وثقافاتِهِمْ فإنَّهُمْ يَتَّحِدُونَ تَحتَ رايةِ حُبِّ الإمامِ الحُسَيْنِ (عليهِ السَّلامُ) وَيَسِيرُونَ نَحوَ (كربلاءَ المقدسةِ) بِقُلُوبٍ تَفيضُ بالوَلاءِ والشَّوْقِ. فَفِي هذهِ الرِّحلةِ الرُّوحيةِ تَتَجَسَّدُ قِصَصٌ لا تُحصى مِن الصَّبْرِ والإيمانِ، حيثُ تكونُ كُلُّ خُطْوَةٍ نَحوَ الضريحِ الشريفِ شاهداً على عِشْقٍ خالِدٍ ومَعانٍ من التَّضْحِيَةِ وَالفِداءِ، فَخُطُواتُ العِشْقِ تَروي حِكايةَ هؤلاءِ الزُّوّارِ الَّذينَ تَجمَعُهُمْ مَشاعِرُ الحُبِّ العَمِيقِ والوَلاءِ الصّادِقِ، وَهُمْ يَسيرُونَ فِي مَسِيرَتِهِمُ الأبَدِيَّةِ نَحوَ مَنارَةِ الحُرِّيَّةِ والعَطاءِ أبي الأحرارِ الإمامِ الحُسَيْنِ (عليهِ السلامُ)، فَلِذلِكَ سَوفَ تَقْتَصِرُ قِصَّتُنا أكثرَ على عاشِقَيْنِ (شابَّيْنِ) لِطَريقِ الجَنَّةِ (زيارةِ الأربعين)، مَشَياً عَلى الأقدامِ فِي كُلِّ عامٍ، رَغْمَ الصُّعُوباتِ وَالتَّحَدِّياتِ: الأول: الشابُّ المؤمِنُ (أُسامة عبّاس الصّافي) من العراق / محافظة واسط / قضاء الحي (مُنتسِبٌ في الشرطةِ الاتحاديةِ)، كان (أُسامةُ) مُنذُ شَبابِهِ يسيرُ دائماً بلهفةٍ وعِشقٍ لزيارةِ الأربعين (ماشياً على الأقدامِ) في عَهدِ (النِّظامِ الصّدامي المقبورِ) لِيَصِلَ إلى مرقدِ الإمامِ الحُسَيْنِ (عليهِ السَّلامُ) ويَقِفَ أمامَ ضَريحِهِ باكياً مُبتَهِلاً ومُتَوَسِّلاً رغمَ القُيودِ التي كانَتْ آنَذاكَ، وَاسْتَمَرَّ على هذا النحوِ (طريقِ الأحرارِ) بعدَ عامِ (٢٠٠٣م) فلَمْ يُضَيِّعْ أيَّ عامٍ مِنَ زيارةِ الأربعين (ماشياً على الأقدامِ)، ولكِنْ فِي إحدى السنواتِ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ، لِأنَّ (العراقَ) كانَ يَمُرُّ بظروفٍ صَعبةٍ، وداعشُ وأعوانُهُ يحاولونَ نشرَ الظلامِ في أرضِ النورِ، فَاسْتُدْعِيَ (أُسامةُ) وزملاؤهُ مِنْ قِبَلِ قادَتِهِم لِتَنْفيذِ مَهَمَّةٍ خطيرةٍ في إحدى المُدُنِ المُحاصَرَةِ في مُحافَظةِ (الأنبار) مِنْ قِبَلِ داعشَ وأعوانِهِ، وكانَت المَهَمَّةُ تستَدعي شَجاعةً كبيرةً، فَقَرَّرَ (أُسامةُ) وزملاؤهُ المشاركَةَ دونَ تَرَدُّدٍ، وهُوَ يُدرِكُ أنَّهُ قَدْ لا يَعود. وقَبْلَ مُغادَرَتِهِ وَقَفَ (أُسامَةُ) أمامَ صُورةٍ لِلإمامِ الحُسَيْنِ (عليهِ السَّلامُ) كانَتْ في غُرفَتِهِ الصغيرةِ، وصَلَّى بحُرقَةٍ، فَكانَ يُدرِكُ أنَّهُ لَنْ يَتَمَكَّنَ مِن المَشْيِ هذا العامَ في طريقِ العِشْقِ الحُسَيْنِيِّ الذي اعتادَ عليه، لكِنَّهُ كانَ على يقينٍ أنْ مَهَمَّتَهُ الجديدةَ ليسَتْ إلا جُزءاً مِنْ تلكَ المسيرةِ، مسيرةِ الدفاعِ عن الأرضِ والعِرضِ والكرامَةِ، التي تَعَلَّمَها من الإمامِ الحُسَيْنِ (عليهِ السلامُ) ومِنْ نهضتِهِ الخالدةِ. وفي إحدى اللَّيالي المُظلِمَةِ، وبينَما كانَ (أُسامَةُ) وزُمَلاؤهُ يقاتِلونَ بشجاعَةٍ ضِدَّ قُوى الظلامِ، سَقَطَ (أُسامةُ) شهيداً، مُضَرَّجاً بِدِمائِهِ الطاهِرَةِ، كَما سَقَطَ أصحابُ الإمامِ الحُسَيْنِ (عليهم السلام) يَومَ عاشوراءَ، وعادَ جُثمانُهُ الطاهرُ إلى مدينَتِهِ (الحي) ملفوفاً بالعَلَمِ العِراقِيِّ، لِيُدْفَنَ هُناكَ في أرضٍ كان يأمُلُ أن يعودَ إليها وهُوَ يحملُ مِنْ بَرَكاتِ كربلاءَ. وَفِي الجِهَةِ الأُخرى مِن الحدودِ العراقيةِ، كانَ هناكَ الشابُّ الثاني: (مُحَمَّدٌ) مِنْ دَولَةِ الْكُوَيْتِ، كان (مُحمدٌ) مِثْلَ (أُسامةَ)، عاشِقاً لِزيارَةِ الإمامِ الحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلامُ). فَفِي كُلِّ عامٍ كانَ يُسافِرُ إلى العِراقِ لِيُشارِكَ في مَسيرةِ الأربعين، حيثُ يشعُرُ بِأنَّ خُطواتِهِ على هذا الطريقِ تُلامِسُ

رُوحَهُ وتَغْسِلُها. لكِنَّهُ في أَحَدِ الأعوامِ، فَرَضَتْ عَليهِ الحكومةُ الكويتيةُ إقامَةً جبريةً (أربعَ سنواتٍ) بِسَبَبِ مَخاوِفَ أمنيةٍ، وَمَنَعَتْهُ من السَّفَرِ إلى العراقِ رَغمَ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أيُّ قَيْدٍ أمْنِيٍّ ولَمْ يَرتَكِبْ أيَّ جريمةٍ، ذنبُهُ الوحيدُ هُوَ أنَّهُ عاشقٌ لِطريقِ الأحرارِ (الزيارةِ الأربعينيةِ)، فَمَرَّتْ على (مُحَمَّدٍ) وهُوَ يعيشُ في ظِلِّ هذِهِ القُيودِ، فَيَشتاقُ في كُلِّ لَحظةٍ للوُقوفِ أمامَ ضريحِ الإمامِ الحُسَيْنِ (عليهِ السَّلامُ)، فَكانَتْ نارُ الشَّوقِ تَشْتَعِلُ في قَلْبِهِ، ولَمْ يَكُنْ يَقوى على الانتظارِ أكثرَ. وفِي لحظةِ قرارٍ حاسِمَةٍ، اتَّخَذَ الشابُّ (مُحَمَّدٌ) طَرِيقَ الصَّحراءِ الوَعرَ المَليءَ بالمخاطِرِ، قاطِعاً المسافاتِ الطويلةَ سيراً على الأقدامِ نحوَ (كربلاءَ المقدسةِ) فكانَ يُدْرِكُ بأنَّ الرِّحلَةَ خَطِيرَةٌ، ولكِنَّ عِشقَ (الزيارةِ الأربعينيةِ) كانَ أقوى مِنْ كُلِّ القُيودِ والمخاوفِ. فَعَبَرَ (مُحَمَّدٌ) الصَّحْراءَ القاحلةَ، وَهُوَ يُواجِهُ الرِّياحَ العاتيةَ والظُّروفَ القاسيةَ، مُتَشَبِّثاً بِإيمانِهِ وَوَلائِهِ وَعِشْقِهِ. فكانَتْ خُطواتُهُ على الرِّمالِ السّاخِنَةِ تَحْمِلُ في طَيّاتِها حِكايَةَ عِشْقٍ لا تَعْرِفُ حُدوداً. وكَأنَّ رُوحَهُ كانَتْ تَهْمِسُ لَهُ بِأنَّ كُلَّ خُطوةٍ يَخطُوها تُقَرِّبُهُ أكثرَ من الإمامِ الحُسَيْنِ (عليهِ السلامُ) ومِنْ حُلُمِهِ الَّذِي لَطالَما سَعى لِتَحقيقِهِ. وبَيْنَما كانَت المَلايينُ مِنَ العاشقين (الزُّوّارِ) تَتَّجِهُ نحوَ (كربلاءَ المقدسةِ) وفي يومِ الأربعين، وَصَلَ أخيراً إلى حُدودِ العراقِ، مُنْهَكاً لكِنَّهُ مُحاطٌ بِروحِ الشَّهيدِ (أُسامةَ الصافي) وَكُلِّ العاشِقينَ الَّذينَ سارُوا قَبْلَهُ. وفِي لَحظَةِ وُصُولِهِ شَعَرَ الشّابُّ المؤْمِنُ (مُحَمَّدٌ) بِأنَّ كُلَّ أَلَمٍ وَتَعَبٍ عَاشَهُ في هذه الرِّحلَةِ قَد تَلاشى، إذْ أدرَكَ أنَّ خُطواتِهِ لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ سَيْرٍ عَلى الأقدامِ، بَلْ كانَتْ خُطواتِ عِشْقٍ لا يَنْتَهِي، لِأَنَّهُ مُرتَبِطٌ بالإمامِ الحُسَيْنِ (عليهِ السَّلامُ) وَبِكُلِّ مَنْ سارُوا فِي نَفْسِ الطريقِ مِنْ قَبْلُ.

وَأخيراً وليسَ آخِراً، تَبقى قِصَّةُ (الشهيدِ أُسامَةَ) و(مُحَمَّدٍ) اللَّذَيْنِ كانا مِنْ بَلَدَينِ مُخْتَلِفَيْنِ، حيثُ جَمَعَهُما عِشْقٌ واحِدٌ وطريقٌ واحدٌ هو (طريقُ كربلاءَ المقدسةِ) تبقى قِصَّةً خالدةً في العِشقِ الحُسَيْنِيّ الذي لا يَعْرِفُ حُدوداً ولا يَهابُ المخاطِرِ. (أُسامَةُ) الَّذِي ضَحّى بِرُوحِهِ دِفاعاً عَنْ أرضِهِ، وَ(مُحَمَّدٌ) الذي تَحَدَّى الصَّحراءَ والقُيودَ لِيَصِلَ إلى كربلاءَ، فَكُلٌّ مِنهُما أَثْبَتَ أنَّ حُبَّ الإمامِ الحُسَيْنِ (عليهِ السلامُ) لَيْسَ مُجَرَّدَ شُعورٍ في القَلْبِ، بَلْ هُوَ قُوَّةٌ دافِعَةٌ تُلْهِمُ المَرْءَ إرادَةً للتَّضْحِيَةِ والمُثابَرَةِ. وَلَقَدْ خَطَّتْ أقدامُهُما طَريقاً مَحفوفاً بالعِشْقِ والتَّضْحِيَةِ، وتَرَكا خَلْفَهُما أثراً فِي ذاكِرَةِ كُلِّ مَنْ عَرَفَ قِصَّتَهُما لا يُمحى. وَهكذا يَسْتَمِرُّ (طريقُ كربلاءِ) الَّذِي أنْقَذَ حاضِرَنا مِنْ داعشَ وأعوانِهِ عِندَما أصْدَرَ القائِدُ الحكيمُ والمُرشِدُ الأعلى السَّيِّدُ السِّيستانِيُّ (دامَ للهِ) فَتواهُ المباركةَ (الجهاد الكفائي) ضِدَّ زُمْرَةِ داعشَ وأعوانِهِ، لِأَنَّهُ كانَ مُدْرِكاً إدراكاً حقيقيّاً ومُتَيَقِناً بِأَنَّ هذهِ الحُشودَ المليونيةَ (زُوّارِ الأربعينيةِ) جاءَ دَورُهُمْ لِإنقاذِ العِراقِ، فَلولا هذهِ الحماسةُ الحسينيةُ (الزيارة الأربعينية) لَكانَ العراقُ في خَبَرِ كان. وأخيراً نقولُ: ما بَكَيْنا انكساراً ... بَلْ وَقوداً لِلثَّباتِ ... أبْكي على المَظْلُومِيَّةِ التي نَراها إلى عَصْرِنا هذا ... وَاللهِ لَمْ أبكِ عَلى نَفْسِي ... بَلْ بُكائِي عَلى الْحُسَيْنِ (عليهِ السَّلامُ).